التغليظ في قراءة ورْش

تفسير ورأي

مُلخّص البحث

يتناول هذا البحث ظاهرة التغليظ في قراءة ورْش ، وأعني بها هنا تغليظ فونيم اللام -على نحوٍ خاص – في بعض السياقات التركيبية ، وكان منهج البحث قائماً على أساس التحليل التركيبي للسياق الصوتي الذي ترد فيه اللام .

وقد توصّل الباحث إلى أنّ التغليظ في قراءة (ورْش) هو حالةٌ وسطى بين التليين والتغليظ اعتماداً على استقراء أنواع الصور النطقيّة لفونيم اللام في العربيّة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فلا يخفى أثر القراءات القرآنية في الدراسات اللغوية قديماً وحديثاً فيما توصّلت إليه من نتائج من خلال تفسير كثير من الظواهر اللغوية لا سيّما ما تعلّق منها بالجوانب الصوتيّة ، ولعلّ هذا المستوى كان الأكثر وضوحاً من بين المستويات اللغوية الأخرى في مثل هذه الدراسات وكان من أشدّها عنايةً بملاحظات علماء القراءة والتجويد الذين يرجع الفضل إليهم في بيان مذاهب القرّاء وتفسير ما اختلفوا فيه من جهة النص ، وتعليل ما تفرّد به بعضهم من ظواهر صوتية في : الإدغام والهمز والإمالة والوقف والتفخيم والترقيق، وغير ذلك من الظواهر التي نجدها مبثوثة في العادة في مُقدّمة كتب القراءات ، والتي اتُفق على تسميتها بالأصول، فضلاً عن هذا كلّه ما وجدناه من ميل واضح لدى هؤلاء العلماء من تفسير وتحليلٍ لمثل هذه الظواهر، وهو في الغالب تحليلٌ ينمّ عن معرفةٍ دقيقة بخصائص اللغة و(القوانين) الصوتية التي تتحكم في هذا الصوت أو ذاك في إطار ما يُسمّى بالتغيّر التركيبيّ على نحوٍ خاص ، وهو مسلكٌ يدلّ على فهم دقيق لصفات الأصوات العربيّة وأثر التنويع السياقي أو المجاورة الصوتية في صوت مُعيّن في السلسلة الكلاميّة ، وهو أمرٌ دالّ على سبق علمائنا القدماء في هذا المجال ، فلهم الفضل فيما قدّموه من مادّة دراسيّة صوتية للباحثين المُعاصرين الذين لهم فضل التجديد في مناهج البحث اللغوي فيما انتهى إليهم من مباحث القدماء ، وفيما انتهوا إليه من نتائج صائبة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة .

وعلى كلّ حال فإنّ ما بُذل من جهود - قديمة أو مُعاصرة - في مجال الدرس الصوتي وفي تفسير الظواهر الصوتية في القراءات على نحو خاص ، إنّما كان يهدف إلى جملة من الأغراض ، لعلّ من أبرزها كما أرى هو وصف اللغة العربية على المستوى الصوتي ، من جهة ما يطرأ للصوت من تغيير في البنية التركيبيّة على نحوٍ خاص وهو وصفٌ لا يخرج عمّا اطّردفياللسان العربيّ الفصيح ولا يصطدم مع قداسة النصّ القرآني الذي أُنزِل بلسانٍ عربيّ مُبين ،وثمّة غرضٌ آخر هو بمنزلةٍ لا تقلّ أهمية عمّا سَبق ذكره ألا وهو رعاية النص القرآنيّ من جهة النطق ، فقد أولى علماء التجويدخاصّةً هذه الغايةَ الكثير من عنايتهم فيما يتّصل بتجويد القراءة فقد ذكر

المُرادي أنّ من بين الأمور التي يتوقّف عليها التجويد : معرفة ما يطرأ من تغيّر في نُطق الصوت بسبب التركيب ، وضبط أحكام هذا النطق أو ذاك في ضوء السياق الذي يردُ فيه الصوت[1] ، ولهذا كانت أحكام التركيب من بين المباحث الصوتية التي حظيت باهتمام كبير عند علماء التجويد فيما صنّفوا من كتب وشروح ورسائل ومنظومات تعليميّة .

وفي إطار ذلك كلّه تأتي هذه المُحاولة المتواضعة في دراسة ظاهرة التغليظ خاصّة في قراءة شيخ الإقراء في الديار المصرية ، في زمانه ،عثمان بن سعيد المعروف بورش ، وهي محاولة سعيتُ إليها بعد علمي بمكانة هذا الرجل الذي تفرّد في قراءته باختيار ظواهر صوتية – من بينها ما نحن بصدد دراسته - استأثرت بملاحظات طائفة من العلماء من أمثال ابن غلبون المتوفّى في سنة ٣٩٩ للهجرة ، في كتابه (التذكرة في القراءات) ، وابن الباذش المتوفّى في سنة ٥٤٠ للهجرة ، في كتابه :(الإقناع في القراءات السبع)، والأمام الشاطبيّ المتوفى في سنة ٥٩٠ للهجرة ، في قصيدته اللامية المشهورة ، وأبي شامة المتوفى في سنة ٦٦٥ للهجرة ، في شرحه للقصيدة المذكورة في كتابه: (إبراز المعاني) وابن الجزري المتوفّى في سنة ٨٣٣ للهجرة ، في كتابه : (النشر في القراءات العشر) وغيرهم ، مِمن لم تخلُ مقدّمات كتبهم - في تناول الأصول - مِن إشارات إلى ظواهر صوتية تفرّد بها ورش في قراءته حتّى عُدّت مذهباً له يُشار إليه بين مذاهب القرّاء المُجيدين .

وقد رأيت أن يكون منطلق هذا البحث من توطئة أتناول فيها سيرة الرجل ومصادر قراءته،ومدخلٍ يُعنى بتحديد مصطلح **(التغليظ)** عند القدماء .أمّا الدراسة فقد اقتضى إطار البحث أن تكون في مبحثين :

الأول منهما في دراسة صوت اللام عند سيبويه والمحدثين ، من حيث مخرجه وصفته وطريقة إنتاجه، وتحدّثت فيه كذلك عن أنواع اللام في العربية .

والآخر في ظاهرة التغليظ في قراءة ورش ومواضعها، وكلّ ذلك على أساس ما ينتابُ الحرف من الصفات النُطقيّة التي تعرض له في التركيب .

وأودّ أن أنبّه هنا على أنّي اقتصرت في دراسة هذه الظاهرة في سياق الوصل دون الوقف ، باعتبار أنّ الوقف يُشكّلُ أصلاً قائماً برأسه من بين أصول القراءات وظاهرة صوتية مستقلّة لها ظروفها الخاصة ،وكان سبيلنا في ذلك كلّه أن نذكر مواضع هذه الظاهرة وأن نُفسّر كلّ موضعٍ بما ورد من ملاحظات صوتيّة قديمة حوله مع أخذنا بما ورد من ملاحظات الباحثين المعاصرين التي لا يجد البحث غنىً عنها .ووقفنا - بعد ذلك كلّه - على أهمّ النتائج التي انتهى إليها البحث في إطار المدخل والدراسة .

وبعد فإنّ هذا البحث محاولة في طريق الوصول إلى الحقيقة ، فإن أصبتُ فهو الغاية ، وإن لم يكن ذاك فحسبي أنّي بذلت جهدا فيها . نسأل الله سبحانه أن يوفّقنا في خدمة كتابه المجيد ، وأن يُلهمنا تلاوته والعملَ بما دلّنا عليه من العمل الصالح ، إنّه سميعٌ مُجيب .

توطئة في سيرة ورش ومصادر قراءته

بالرغم من الاختلاف الواقع في نسب ورش إلّا أنّ هناك اتفاقاً في اسمه واسم أبيه ، فهو عُثمان بن سعيد ، وأمّا أبوه سعيد فهو :ابن عديّ بن غزوان بن داوود بن سابق ، ويقال هو ابن عبد الله ابن عمرو بن سُليمان بن إبراهيم [٢] ، وكذلك اختُلف في أصله فهو من القيروان وقيل من أفريقيا ، وقال ياقوت : والأوّل أشهر[٣] ، ومّمالا شكّ فيه أنّه ولد في مصر سنة ١١٠ للهجرة ، ومن الراجح أنّه ولد في(قفط) ، وهي بلدة بالصعيد الأعلى حولها مزارع وبساتين كثيرة كما وصفها ياقوت [٤]ومن هنا نُسب إليها فقيل: القفطي [٥] مع ما يتردّد في بعض مصادر ترجمته من كونه من الأقباط ، فقيل : القبطيّ [٦] ولستُ أدري إذا كانت هذه الكلمة مُحرّفة أو لا ؟ فليس بين يديّ نصٌّ يوثّق نسبته الأخيرة هذه سوى ما وجدناه من الاختلاف في نسبه كما مرّ في أوّل هذا الكلام ، فالرواية الثانية في نسبه تشير إلى أنّ جدّه الثالث إبراهيم كان من الموالي ، فقد كان مولىً لآل الزبير بن العوّام، وبسبب ذلك لُقّب ورش بالقرشيّ . [٧] أمّا ورَشٌ فهو لقبٌ له ، وكان ورش يقول : أستاذي نافع سمّاني به [٨] واختُلف في سبب هذه التسمية فقيل : إنّ الورْش شيء يُصنع من اللبن وهو (الإقط)، فلقّبه بذلك لبياضه ، وقيل :إنّ كلمة ورَش مُختزلة من (الورَشان) – على زنة الكرَوان - وهو طائر يُشبه الحمامة ، لأن ّورَشاً كان - مع قصره – يلبس ثياباً قصاراً فتبدو رجلاه إذا مشى [٩] وعلى كلّ حال فإنّ هذا اللقب غدا علماً له واسماً لزمه إلى يومنا هذا .

والظاهر أنّ حياة ورش في مصر وفي بلدته خاصة ،قبل اتصاله بنافع ، كان يغلب عليها طابع البساطة ، حتى قيل إنّه : كان في شبابه رأّساً [١٠] ، ثُمّ انصرف إلى دراسة علوم العربية والقرآن فمهر فيهما ولعلّ ذلك - كما أرى - من بين الأسباب التي هيّأت له أن يُغادر مصر مُتوجها إلى مدينة الرسول (ص) في حدود سنة ١٥٥ للهجرة وهو في سنّ الخامسة والأربعين ، لملاقاة إمام القراءة فيها نافعٍ المدنيّ ،رحمه الله .ومن الثابت أنّ نافعاً المتوفى في سنة ١٦٩للهجرة آخرُ من عرض عليه ورش في حياته ، فقرأ عليه القرآن أربع ختمات في شهر واحد قبل أن يعود إلى مصر ، ولا شكّ في أنّ اختيار ورش نافعاً ليقرأ عليه لم يكن مُصادفة ، فقد قال أحد الجعفريين –

وهو وسيلة ورش إلى نافع- مخاطباً نافعاً :((إنّ هذا .. جاءك من مصر ليقرأ عليك ليس معه تجارة ولا جاء لحجّ إنّما جاء للقراءة خاصّة))[١١] ، أمّا سبب اختياره لنافع ؛فلأنّ قراءة نافع (وعاصم أيضاً) ((من أوثق القراءات وأصحّها سنداً وأفصحها في العربيّة))[١٢] فضلاً عمّا عُرف عن نافع بين مُعاصريه من القرّاء أنّ له طريقته الخاصّة فيمن يقرأ عليه من تلاميذه ، ولعلّ هذه الطريقة كانت تجنح إلى التيسير والتسهيل، فقد قيل : إنّ نافعا كان يُسّهل القرآن على من يقرأ عليه [١٣] والمراد بالتسهيل هنا كما يظهر لي أنْ يقرأ التلميذ على شيخه من القرآن عدداً قليلاً من الآيات لا تزيد في كل جلسة على الخمسين، وهو ما يُفهم من كلام ورش الذي قال : فما زلتأقرأ عليه خمسين في خمسين حتّى قرأت عليه ختمات قبل أن أخرج من المدينة[١٤] .

وإذا كان ذلك ثابتاً في أخبار ورش، فإنّ في بعضها ما يُشير إلى أنّه قد قرأ على أساتذة له في مصر من قبل أن يقرأ على نافع ، فقد ذكر مكي بن أبي طالب ((أنّ ورشاً قرأ على نافع بما تعلّم في بلده ، فوافق ذلك رواية قرأها نافع عن بعض أئمّته فتركه على ذلك))[١٥] .

ويُفهم من هذا أمران :

أحدهما : أنّما قرأه ورش على نافع ليس إلّا قراءة أخذها من أحد شيوخه في مصر، وهو أمرٌ يصعب التعامل معه لأمر بسيط وهو أنّنا لا نعرفُ - الآن – شيئا عن شيوخه الذين قرأ عليهم في مصر، كما لا نعلم شيئاً عن خصائص هذه القراءة التي ذُكر أنّها وافقت إحدى قراءات نافع التي رواها عن أحد شيوخه **!** .

أمّا **الأمر الآخر** وهو المُهمّ فيكمن في تنوّع قراءة ورش، وهو تنوّع يُنسب إلى تعدّد في الرواية، كما يعود إلى اختيار ورش نفسه وجوهاً من القراءة ارتضاها لنفسه وحملها عنه بعض تلاميذه كما سيظهر في مكان لاحق .

وعلى هذا فقراءة ورش لا تخرج عن ثلاثة أنواع : -

الأوّل ما رواه عن شيوخه في مصر وقرأه على شيخه نافع ولم يعترض عليه ، وهذا النوع لا معرفة لنا به ،وهو بحاجة إلى بحث واستقراء لعلّ أحداً غيرنا في قابل الأيام ينهض به .

والثاني ما رواه عن نافع خاصّة وهو الأشهر، وهو مِمّا نقله عنه طائفة من تلاميذه في مصر ، من أمثال: الحافظ أحمد بن صالح المتوفى في سنة ٢٤٨ للهجرة ،وهو الذي قرأ ابن مجاهد[١٦] بسنده من طريقه عن ورش عن نافع ، ومنهم : داود ابن أبي طيبة العدويّ المتوفى في سنة٢٢٣ للهجرة ، ويونس بن عبد الأعلى الصّدفي المتوفى في سنة ٢٦٤ للهجرة، وهما اللذان رويا ترك التغليظ - كقراءة الجماعة -عن ورشٍ،وغيرهما [١٧] ، وهذا النوع هو ما عليه المُصحف المطبوع في بلاد المغرب العربيّ وفي نواكشوط برواية ورش عن نافع .

أمّا **النوع الثالث** من قراءته فهو ما خالف فيه شيخه نافعاً خاصّة وهو ما اختاره من وجوهٍ في القراءة ، حملها عنه تلميذه أبو يعقوب الأزرق المتوفّى في حدود سنة ٢٤٠ للهجرة، ولعلّ الأزرق هو وحده مَن تفرّد برواية التغليظ عن ورش ، للزومه له ومصاحبته إيّاه مدّة طويلة [١٨] ،ويظهر أنّ رواية الأزرق كانت شائعة في مصر وبلاد المغرب في القرن الخامس الهجريّ ، فقد نقل الذهبيّ عن أبي الفضل الخزاعي المتوفى في سنة ٤٠٨ للهجرة قوله: ((أدركتُ أهل مصر والمغرب على رواية أبي يعقوب عن ورش لا يعرفون غيرها))[١٩] وقد كان لشيوع هذه الرواية حينذاك ما يبرر عناية أبي عمرو الداني المتوفى في سنة ٤٤٤ للهجرة - بها ، فصنّف كتابا في اللامات والراءات في قراءة ورش [٢٠] .

توفّي ورش رحمه الله - في مصر في سنة ١٩٦ للهجرة بعد أن قضّى أربعين سنة - منذ عودته من المدينة إلى مصر – في خدمة كتاب الله العزيز تلاوة وتجويداً وتعليما، وقد خلّف بعده أجيالاً من القرّاء ما زالوا يحملون عنه قراءته إلى يومنا هذا .

مدخل : تحديد المصطلح

التغليظ عند القدماء

لا يخرج المعنى اللغويّ لمادة (غلُظ) كيفما تصرّفت في وجوهها عن الشدّة والصلابة والاستطالة [٢١] ، سواء كان ذلك في الفعل أو الطبع أو النطق ، أو غير ذلك من الأمور المحسوسة غالباً . ومع محاولة استقرائي لموضع الكلمة في عدد من معاجم اللغة [٢٢] التي يرقى تأليفها إلى نهاية القرن الرابع الهجريّ ، فلم أجد فيها هذه المفردة (التغليظ) ، كما لم أجدها في لسان العرب لابن منظور المصري المتوفى في سنة ٧١١ للهجرة ، ولا غرابة في ذلك لأنّ ما نقله صاحب اللسان – تحت مادة غلظ - لا يخرج عمّا ورد في التهذيب للأزهري ، والصحاح للجوهري والمحكم لابن سيدة ، وبعض كتب غريب الحديث ،وهي كلّها قد أخلّت بذكر هذه الكلمة.

والظاهر أنّ هذه الكلمة إنّما اقتصرت على استعمالها طائفة مُعيّنة ،وهي طائفة علماء القراءات والتجويد ، من المغاربة والمصريين بشكلٍ خاص ، وذلك فيما تعارفوا عليه من (باب التغليظ) ، قال أبو شامة :((وهذا باب لم يذكره أكثر المُصنّفين في القراءات ، إنّما اعتنى به المغاربة والمصريون))[٢٣] ولا شكّ في أنّ عناية هؤلاء بهذا الباب - أعني التغليظ - إنّما كان

بسبب انتشار رواية الأزرق عن ورش فيهذا الجانب فهو مَن حملها عنه إلى تلاميذه وعن هؤلاء حملتها الأجيال اللاحقة من قرّاء مصر وبلاد المغرب العربيّ وبعض بلاد أفريقيا .

والذي يتحصّل من هذا أنّ (التغليظ) كمفهوم له دلالته الخاصّة إنّما عُرف في بيئة القرّاء وفي مصر بشكل خاص ، ولستُ أستبعد أن يكون ورشٌ - رحمه الله - قد بيّنه لتلميذه الأزرق الذي صحبه طويلاً ففسّر له علله وبسط له صورته حتّى استقرّ مصطلحا شائعاً وباباً من أبواب القراءة في كتب علماء القراءة والتجويد .

والتغليظ – مصطلحاً – له دلالتان عند هؤلاء ، فهو عند طائفة :تسمين صوت اللام خاصّة ، وذلك بأشباع فتحتها [٢٤] ، وهو بهذا المعنى يرادف التفخيم ،قال ابن الجزريّ متحدّثا عن التفخيم :((فهو والتغليظ واحد ، إلّا أنّ المستعمل في الراء ضدّ الترقيق هو التفخيم وفي اللام التغليظ))[٢٥] ، ومع هذا التمييز في الاستعمال إلا أنّه لم يمنع من استعمال أحدهما مكان الآخر ، وهو ما وجدناه عند طائفة من الباحثين المعاصرين أيضاً [٢٦] ، ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن الجزريّ ، فنقصر التغليظ على صوت اللام خاصة ؛لأنّ التفخيم مصطلح تندرج تحته عدّة ظواهر صوتية مثل تفخيم الراء كما مرّ ، وتفخيم صائت الألف في لهجة الحجاز واليمن قديما [٢٧] ، وهو ما عُرف بإمالة الألف نحو الواو كما هو ثابت في كتب اللغة ، وكذلك تفخيمه إذا وقع بعد صوت طبقيّ أو مُطبق ، هذا وقد حرص علماء التجويد على ضرورة التفرقة بين ترقيق الصوت اللغوي - صامتا كان أو صائتاً - وتفخيمه من خلال موضعه في التركيب [٢٨] ، مِمّا يعني أنّ مصطلح التفخيم أوسع دلالة حتّى أنّه كما يظهر يشتمل على تغليظ اللام عندهم .

وذهبت طائفة أخرى إلى أنّ التغليظ : ((زيادة عمل في اللام إلى جهة الارتفاع))[٢٩] ، وهو ملحظ جيّد يرى أنّ التغليظ نطق خاص للام مُعيّنة في الكلام ، وهذا النطق نتيجة لحركة عضوية مخصوصة تؤدّيها طائفة من أعضاء النطق ، وبناءً على هذا فالتغليظ عند القدماء لا يخرج عن كونه :

١ – صورة من صور نطق فونيم اللام .

٢ – حركة عضوية مسؤولة عن إنتاج هذه الصورة النطقية .

وسوف نتناول هاتين النقطتين بالبيان في الصفحات التالية .

المبحث الأول

صوت اللام – المخرج والصفة

وأشهر ما ورد في هذا المجال قديماً قول سيبويه في تحديد مخرج اللام إذ قال: ((ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك ، والناب الرباعية والثنية مخرجُ اللام))[٣٠] ، ويركّز هذا الوصف كما يبدو على ذلك الجزء الذي سمّاه سيبويه حافةَ اللسان ، بدليل عود الضمير إليها في (أدناها وبينها ويليها) ، والذي يقصده سيبويه بالحافة هنا هو مُقدم اللسان بدليل قوله : وبين ما يليها من الحنك الأعلى مِمّا فويق الضاحك(الأضراس) ، وينبني على ذلك أيضا أنّ الحنك الأعلى في سياق قوله هذا لا يعدو أن يكون مُقدّم الحنك، وهو ما عبّر عنه المعاصرون باللثّة تارة [٣١] وبأصولالثناياتارة أخرى[٣٢]أمّا صفته عنده فهو صوت مجهور [٣٣]، ويفهم من عبارة سيبويه في قوله : ((وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة ... وإن شئت مددت فيها الصوت وليس كالرخوة لأنّ طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه))[٣٤]، أنّ مُقدّم اللسان في حال النطق بصوت اللام يتصل باللثة فينحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع الاتّصال ،غير أنّ انحباسه لا يُشبه حالة انحباسه مع نطق الأصوات الشديدة كالطاء وغيره ، بل إنّ الهواء يجد له منفذاً من جانبي اللسان أو (من ناحيتي مستدقّ اللسان) كما عبّر سيبويه في آخر كلامه ، ويستفاد من هذا :

١- أنّ اللام عند سيبويه صوت شديد باعتبار ما يحدث حال إنتاجه من اتصال طرف اللسان باللثة اتّصالاً محكماً [٣٥] وهو فحوى عبارة سيبويه (لا يتجافى عن موضعه) ، ومعنى ذلك أنّه ليس رخواً .

٢– أنّه لا يُشبه الأصوات الشديدة من جهة منع النفس حال نطقها ،وإذا كان الصوت الشديد عنده هو الذي يمنع الصوت (النفس) أن يجري فيه [٣٦] ، فإنّ اللام باعتبار جري الصوت فيه ليس صوتاً شديداً ، ولهذا السبب لم يُدرجه في قائمة الأصوات الشديدة [٣٧] .

يتبين من ذلك أنّ صوت اللام عند سيبويه : لثويّ منحرف مجهور ليس شديداً بسبب جري النفس معه ، ولا رخواً بسبب انحباس عُضوي النطق انحباساً مُحكماً لا يدع مجالاً لجري النفس من مُقدّمة الفم وإنّما يمرّ النفس من بين جانبي الفم وبين سقف الحنك ومن هنا عُدّ الصوت مُتوسطاً بين الشدّة والرخاوة [٣٨].

أمّا مخرج اللام وصفته عند المُعاصرين ، فلا يكاد كلامهم عنهما يختلف عمّا ذكره سيبويه ، وإذا كان ثمّة اختلاف فلا يعدو أن يكون اختلافا في الصياغة والتعبير ، قال الدكتور محمود

السعران – رحمه الله - :((فاللام العربيّ صامت مجهور سنّي منحرف))[٣٩] ومعنى (سني) أنه من أصول الثنايا ، وهو عند الدكتور تمام حسّان :((صوت لثويّ جانبيّ مجهور)) وعدّه من الأصوات المتوسطة [٤٠] أي ليس بالشديد ولا الرخو، وهو ما أوضحناه فيما مرّ من الكلام عن صفة اللام عند سيبويه .

إنتاج صوت اللام

لقد مرّ في كلام سيبوبه عن مخرج اللام وصفته ما يشير إلى العملية العضوية التي يتكوّن بها الصوت ، وخلاصة ذلك أنّ الهواء المارّ من الرئتين إلى الفم يُصادف عقبة في مُقدّم الفم ، وهذه العقبة ناتجة من اتصال طرف اللسان باللثّة اتّصالا محكماً يمتنع معه أن يمرّ الهواء من مُقدم الفم فينطلق من جانبيه إلى الخارج واللسان ما يزال في موضعه ، حتى يزول الاتصال فينقطع الصوت .

أمّا الباحثون العرب ، فليس في كلامهم في وصف عملية إنتاج صوت اللام ما يتعارض مع وصف سيبويه لها ، وإن كان كلامهم أكثر تفصيلاً لذكر الحنجرة والوترين ، قال الدكتور إبراهيم أنيس : ((ويتكوّن هذا الصوت بأن يمرّ الهواء بالحنجرة ، فيحرّك الوترين الصوتيين ثُمّ يتّخذ مجراه في الحلق وعلى جانبيّ الفم في مجرىً ضيّق يُحدث فيه الهواء نوعاً ضعيفاً من الحفيف ،وفي أثناء مرور الهواء من أحد جانبي الفم أو من كليهما يتّصل طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ، وبذلك يُحال بين الهواء ومروره من وسط الفم فيتسرّب من جانبيه))[٤١] وقال الدكتور محمود السعران : ((يعتمد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا بحيث تنشأ عقبة في وسط الفم ، مع ترك منفذ للهواء عن إحدى حافتي اللسان أو عن حافتيه ، يُرفع الحنك الأعلى فلا ينفذ الهواء عن طريق الأنف))[٤٢] ، وقال الدكتور تمام حسّان : ((يتمّ النطق بالصوت برفع طرف اللسان حتى يتّصل باللثة ورفعِ الطبق حتّى يتصل بالجدار الخلفي للحلق فيسدّ المجرى الأنفيّ ...))[٤٣] وما يلاحظ على كلامي الدكتور السعران والدكتور تمام أنّهما جعلا عملية سدّ المجرى الأنفي تالية لعملية الغلق في مُقدّم الفم ، والظاهر أنّها مُصاحبة لها لذا ينطلق الهواء – في الوقت نفسه - من جانبيه كما سبق .

ونصل بعد ذلك ، من خلال وصف إنتاج صوت اللام عند سيبويه وبعض الباحثين المعاصرين ، إلى مسألة مُهمّة وهي أنّ ذلك الوصف إنّما يصدق على اللام المُرققة دون غيرها ، وهي التي سمّاها (ماريو باي) باللام المائعة وهذا النوع من اللام سواء في العربية أو الإنكليزية

إنّما يتكوّن إذا كانت نقطة الغلق أو الانحباس في مُقدّمة الفم وهي ذلك العضو الذي عُبّر عنه باللثّة ، وأما عبارة الدكتور السعران في قوله السابق (حيث تنشأ عقبة في وسط الفم) ،بسبب اعتماد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا ، فإنّها تصدق على نوع آخر من اللام.

أنواع اللام في العربيّة

وهنا أودّ الإشارة إلى مسألة أخرى ، وهي أنّ اللام العربية كما وصفت لنا في كتب اللغة والتجويد لا تخرج عن نوعين اثنين هما :اللام الليّنة أو المرققة وهي الأصل، وهي التي وصفت لنا في كتب اللغة والقراءة والتجويد ، واللام المغلّظة التي وصفت لنا في كتب القراءة والتجويد بشكل خاص، وقد كان هذا التمييز في الغالب مبنيّا على أساس فكرة الأصل ، فاللام اللينة أصل عند هؤلاء وهؤلاء لا يختلفون في هذا والمغلّظة فرعٌ منها أي أنّها صفة صوتية عارضة على الأصل لسبب طارئ ، بزواله تعود إلى سيرتها الأولى فيما كانت عليه من ترقيق أو تليين .والحقّ أنّ فكرة الأصلية والفرعية ،لا تصلح أساساً للتمييز بين هذين النوعين من اللام ، والأجدى في دراسة ذلك دراسةً صوتيةً موضوعية أن يُعتمد على أساسٍ آخر ، وهو ما تبنّته هذه الدراسة في هذا المجال ،وهذا الأساس يتمثّل في اعتماد مواضع عمليّة الغلق في إنتاج الصور النطقية المختلفة لفونيم اللام مائزاً فيما بينها ، وهو الأساس الذي اعتمده اللغوي الإيطالي(ماريو باي) في وصف اللام الإنكليزية ، وخلاصة ما جاء به هذا اللغوي أنّ موضع نقطة اتّصال عُضوي النطق باللام هو المسؤول عن إنتاج هذه الصورة النطقيّة أو تلك ، فإذا كانت نقطة الاتصال (أو الغلق) في مُقدمة الفم خرجت اللام المائعة في مثل million وإذا تأخرت إلى وسطه خرجت اللام المتوسطة في مثلlove وإذا تأخّرت نقطة الاتصال أكثر إلى الخلف خرجت اللام التي في مثل milk، فاللام في اللغة الانكليزية : مائعة ومتوسطة وخلفية [٤٤] .

وإذا كان إنتاج اللام العربية كما وصفه سيبويه والمحدثون يتمّ باتّصال مُقدّم اللسان بمُقدمة الفم أو اللثة ، فإن الصوت الناتج هنا هو اللام الليّنة (المرققة) وهي كثيرة الدوران في الكلام .

أمّا إذا عُدنا إلى عبارة أبي شامة التي ذكرناها في كلامنا عن تحديد المصطلح وهي أنّ التغليظ (زيادة عمل في اللام إلى جهة الارتفاع) ، فالذي يُفهم من كلمة(الارتفاع) في هذا الموضع أنّ مُقدّم اللسان حين النطق باللام المغلّظة – إمّا :

١– أن يتأخر إلى مُقدّمة الحنك الصلب مما يلي اللثة وهو موضع الاتّصال ، فتخرج اللام هنا شبيهة باللام التي في لفظ الجلالة: الله .

٢- أو يتأخّر إلى الوراء إلى وسط الحنك الصلب، وهو موضع الاتّصال ، فتخرج اللام التي في

نحو : عَطَل وخالَة وصَخَل ودَغَل وغيرها، مما نسمعه في اللهجة العراقية والكويتية . وإذا كان علماء القراءة والتجويد يُقرّرون أنّ اللام التي في لفظ الجلالة (الله) مُغلّظة ، أمكننا أن نُميّز – في ضوء ما شرحناه - بين ثلاثة أنواع من فونيم اللام في العربية ، هذه الأنواع هي : اللام اللينة واللام الغليظة ، واللام المتوسطة وهي اللام التي يمكن أن توصف بأنّها بين اللام اللينة وبين اللام الغليظة لا من حيث مخرجها فقط وإنّما من جهة درجة الصوت كذلك . ودرجة الصوت ملمحٌ آخر يُمكن في ضوئه التفريق بين هذه الأنواع الثلاثة لفونيم اللام ، والمراد به من جهة اللغة ما ذكره المرعشي في تفريقه بين الترقيق والتغليظ ، حين قال :((والتغليظ عبارة عن سِمن يدخل جسم الحرف ، فيمتلئ الفم بصداه ، والتفخيم عبارة عنه والترقيق عبارة عن ضدّ التغليظ وهو نحول يدخل على جسم الحرف فلا يملأ صداهُ الفم))[٤٥] وقد عرّفها الدكتور تمام حسان بسمك الصوت ودقّته [٤٦]وهو فحوى كلام المرعشي ، وأياً كان (حجم) الصوت فإنّ ذلك يتوقّف على ((عدد الذبذبات في وقت مُعين يُحدد عادة بالثانية فإذا كثر عدد الذبذبات في الثانية كان الصوت دقيقاً ، وإذا قلّ كان الصوت سميكاً))[٤٧]وكثرة تردد ذبذبة الأوتار الصوتية في الحنجرة أو قلّته يتوقّف كلّ منهما - فيما أحسب – ليس على وضع مؤخرة اللسان فقط وإنّما يتوقّف كذلك على موضع نقطة الغلق ، فإذا كان الغلق أمامياً في حال نطق اللام اللينة كان التردد كثيراً ، وإذا كان الغلق في وسط الفم كان التردد قليلاً أمّا إذا كان الغلق خلفياً فإنّ التردّد سيكون لا محالة أقلّ ، وما ذلك - كما يظهر - إلّا لقِصر المسافة بين موضع الاتّصال وبين أقصى اللسان ، ولهذا السبب ندرك أنّ اللام الخلفية أكثر وضوحاً في السمع من أختيها ، كما أنّها أكثر منهما عملاً في اللسان ، ففي أثناء النطق بها يصل أقصى اللسان إلى موضع الطبق الليّن، ولعلّ هذا ما قصد إليه أبو شامة - أيضاً - فيما سبق من كلامه .

المبحث الثاني

التغليظ في قراءة ورْش

بالرغم من أنّ ظاهرة التغليظ في قراءة ورش لا تقتصر على الصوت الساكن (اللام) ، وإنّما تشمل بعض الصوائت على نحو ما نُسب إليه من تغليظ صائت الألف في بعض السياقات[٤٨]، إلّا أنّ تغليظ اللام هو المشهور عنه في اختياره .

والتغليظ في بعض الأصوات اللغوية لا يعدو أن يكون صفة فيها ، وهذه الصفة إمّا أن

تكون ذاتية طبيعية في الصوت كما في أصوات الإطباق التي حافظت على صفتها هذه بسبب موضعها من النطق ، وقوّتها التي جعلتها عصيّة على التأثّر بما يجاورها من أصوات . وإمّا أن تكون تلك الصفة مكتسبة في الصوت من صوت آخر يجاوره في التركيب .ويتّفق علماء القراءة والتجويد على أنّ اللام في اسم (الله)تعالى مغلّظة في موضعين : أن يُبتدأ بها الكلام ، أو تكون تالية لصائتي الفتحة والضمة القصيرين أو الطويلين ،وترقّق فيما عدا ذلك أي أن تكون تالية لكسرة قصيرة أو طويلة ، ويشير الموضع الأول إلى أنّ التغليظ يكاد يكون ذاتيّاً لعدم وجود مؤثّر سابق ، بينما يشير الموضع الثاني إلى أثر التركيب أو السياق .وتفسير الموضع الأول كما يبدو أنّ التغليظ فيه يرجع إلى أنّه عادة نطقية مألوفة في كلام العرب ينقلها خالف عن سالف وجيل عن آخر وهو ما عليه القرّاء في البلاد العربية والإسلامية ، وهو الشائع في اللهجات العربية الحديثة

أمّا اللام في غير اسم الله تعالى ، فلا خلاف بين القرّاء من جهة اللفظ بها أنّها مفتوحة غير مغلّظة [٤٩] ، ويبدو أنّ السبب في ذلك يعود إلى مراعاة الأصل عندهم ، فاللام من الأصوات المستفلة أي التي ينحدر في نطقها اللسان إلى قاع الفم ، وهذه الأصوات يغلب عليها أن تنطق مرقّقة ، قال ابن الجزري : ((وقولهم : الأصل في اللام الترقيق أبين من قولهم في الراء إنّ أصلها التفخيم ، وذلك أنّ اللام لا تُغلّظ إلا لسبب .. وليس تغليظها إذ ذاك بلازم ..))[٥٠] وعلى كلّ حال فإنّ تغليظها منقول عن ورش برواية الأزرق عنه ، وهو ما قرّره علماء القراءة والتجويد، قال ابن الجزري : ((وقد اختصّ المصريون بمذهب عن ورش في اللام لم يشاركهم فيها سواهم ورووا عن طريق الأزرق وغيره عن ورش تغليظَ اللام إذا جاورها حرف تفخيم))[٥١] ، ويفهم من هذا أنّ تغليظ اللام عند ورش ظاهرة تركيبية محدّدة ، وذلك عندما يجاورها صوت من أصوات التفخيم والمراد بها أصوات الإطباق وهي الطاء والصاد والظاء والضاد ، ويشير ابن الجزري كذلك إلى أنّ بعض المغاربة والمصريين ((رووا تغليظها إذا وقعت بين حرفي استعلاء))[٥٢] ، والمقصود بحرفي الاستعلاء هنا: الغين والخاء ، وسأتناول هذين الموضعين كلّاً على حدة .

أوّلاً : مع أصوات الأطباق : -غلّظ ورش اللام في هذا الموضع في مسلكين ، هما:

١ - وقوعها بعد صوت مُطبق

٢ – أو بين صوتين مُطبقين .

والمسلك الأول يحدث في سياقات مُعيّنة ، وهي كما نبّه عليها علماء القراءة :

١ – أن تكون اللام وصوت الإطباق مُحرّكين بالفتحة ، ومنه :(وانطلَقوا) و (وما صَلَبوه) و(وما ظَلَمناهم) ونحوها ، ولم يرد لديهم مثال على تغليظها مع الضاد في هذا السياق .

٢ – أن تكون اللام مفتوحة وحرف الأطباق ساكناً، ومنه:(مطْلَع الفجرِ) و(فيُصْلَب) و (ولا يُظْلَمون) و (أضْلَلْتم) ونحوها .

٣ – أن تكون اللام مفتوحة وحرف الإطباق مُضعّفاً ، ومنه : (وبئرٌ مُعطّلَةٌ) و(كتاباً مُفصّلاً) و(على الصّلَاة) ، وأمثالها .

٤- أن تكون اللام مُضعّفةً ويكون حرف الأطباق مفتوحاً، ومنه:(إذا طَلّقتم) و (إذا صَلّى) و (يُصَلّبوا) و (بظَلّامٍ) وغيرها .

أمّا المسلك الآخر فقد ورد في موضع واحد وهو وقوع اللام الساكنة بين حرفين مطبقين متماثلين ، على نحو ما ورد في : (صَلْصَال) .

ثانياً : مع حرفي الاستعلاء، رويَ عن ورش أنّه كان يُغلّظ اللام المفتوحة إذا وقعت بين حرفي استعلاء من نحو : (خَلَطوا) و (أخْلَصوا) و (استَغْلَظَ) ونحو ذلك [٥٣]

وهذا الذي وقفنا عليه من تغليظ اللام فيما روي عن ورش ،ولا سيّما مع حروف الإطباق هو المتّفق عليه عند أغلب علماء القراءة والتجويد ، أمّا المسلك الآخر فقد نقله بعض المغاربة والمصريين كما صرّح بذلك ابن الجزري في كلام سابق، وعلى كلّ حالٍ فإنّ له وجهاً في العربية سنذكره .

ويلاحظ على ما ورد من تغليظ اللام مع حروف الإطباق في قراءة ورش ، أنّ نسبة شيوعها مع الطاء والصاد والظاء أكثر من الضاد ، ولهذا سببان : أحدهما يتعلّق باختلاف عدد هذه الحروف في مصادر قراءته هذه، فهي ثلاثة في أكثرها وهو المشهور[٥٤]، وهي الطاء والصاد والظاء ، وقال الشاطبي في(حرز الأماني) :

وغلّظ ورْشٌ فتحَ لامٍ لصادها أو الطاءِ أو للظاءِ ، قبلُ تنزُّلا

أمّا السبب الآخر فيكمن في السياق الصوتي نفسه ، وذلك أنّ تغليظ اللام – وهي منحرفة - يعني الجمع بين صوتين مُنحرفين في سياق نُطقيّ واحد، وفي ذلك من الكُلفة في بذل الجهد العضليّ المُضاعف في إنتاج كلّ منهما ، فذلك يعني نطق صوتين مُطبقين نُطقاً متوالياً يرتفع فيه مؤخّر اللسان إلى الحنك الأعلى مرّتين في آنٍ واحد وهو مِمّا لم يُسمع من الناطقين بالعربية الفُصحى .

ولهذا السبب أميل إلى أنّ ورشاً قد استثنى اللام الواقعة بعد الضاد المنحرفة من مذهبه في التغليظ مكتفياً بما تيسّر له من أصوات الإطباق الأخرى .ولا شكّ في أنّ تفسير تغليظ اللام مع هذه الطائفة من الأصوات يرجع إلى تلك الظاهرة الصوتية التي أطلق عليها القدماء بالمجاورة بين الأصوات[٥٥] وأطلق عليها المعاصرون بالموقعية قال الدكتور تمام حسّان :((... ويعدّ تفخيم اللام

أو تغليظها ظاهرة موقعية أو سياقية ، بسبب مجاورتها لحروف الإطباق التي تحتفظ بتفخيمها في كلّ موضع))[٥٦] ، ولبعض القدماء في تحليل ظاهرة تغليظ اللام عند ورش ما يكاد يقترب من وجهة نظر المحدثين ، فقد قال مكّي :((وعلّة من فخّم هذا النوع أنّه لمّا تقدّم اللام حرف مُفخّم مُطبق مُستعلٍ أراد أن يُقرّب اللام نحو لفظه ، فيعمل اللسان في التفخيم عملاً واحداً ، وهذا هو معظم مذاهب العرب في مثل هذا يُقرّبون الحرف من الحرف ليعمل اللسان عملاً واحداً ... وعلى هذا أبدلوا من السين صاداً إذا أتى بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء ،ليعمل اللسان في الإطباق عملاً واحداً ، فذلك أخفّ عليهم من أن يتسفّل اللسان بالحرف ثمّ يتصعّد إلى ما بعده))[٥٧] ، ويفهم من هذا أنّ تغليظ اللام إنّما حصل بسبب موقعه بجوار صوت مفخّم في بنية الكلمة ، وإذا كان إنتاج أصوات التفخيم(المطبقة) يتمّ بارتفاع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق اللّين وتحرّكه إلى الخلف في اتجاه الجدار الخلفي للحلق [٥٨] ، فإنّ المتوقّع – بعد ذلك - في طريقة نطق هذه (اللام) أن تكون مماثلة لكيفية نطق الصوت المُطبق لغرض إحداث نوع من الانسجام الصوتي في بنية الكلمة ، فضلاً عن الاقتصاد في عملية النطق .والتغليظ هنا لا يقتصر على اللام دون حركتها ، فهذا ليس ممكناً ، ففتحة اللام من بنية الكلمة وهي بلا شكّ عرضة للتفخيم أمّا قول أبي شامة الذي مرّ بنا وهو أنّ تغليظ اللام يكون بأشباع حركتها أي تفخيمها ، فليس معناه أنّ الإشباع علّة له وإنّما يريد أنّ تغليظ اللام يستدعي تفخيم حركتها ، ولا شكّ في أنّ الحركة تتأثر بما يكتنفها من صوامت تفخيماً أو ترقيقاً ، وهو ملمح بارز في العربية الفصحى خاصة ، قال بروكلمان : ((تتأثر الحركات الثلاث الأصلية : الفتحة والكسرة والضمة في كل اللغات السامية وعلى الأخص في العربية بما حولها من الأصوات الصامتة))[٥٩] ولهذا فالتغليظ هنا واقع على المقطع كلّه (لَ) ، وهو مقطع قصير : صامت + حركة ، ومن المعلوم أنّه لا يوجد في العربية مقطع خالٍ من الحركة [٦٠] أما تغليظ اللام في المسلك الآخر وهو وقوعها ساكنة بين صوتين مُطبقين ، فتفسيره لا يكاد يختلف عن التفسير السابق بل إنّ السياق هنا مِمّا يقوّي التغليظ كما صرّح مكّي بن أبي طالب[٦١]وذلك في(من صَلْصَالٍ) ومثلها وهو موضع لا نظير له في القرآن ، والذي روي عن ورش فيه تغليظ اللام الأولى وحدها ، ولا أظنّ ذلك لأنّ الألف هنا مفخّمة لوقوعها بعد الصاد المُطبقة ، ومذهب ورش في الألف تفخيمها إذا وقعت بين حرفين مُغلّظين كما صرّح بذلك ابن بصخان في ردّه على مَن أنكر تفخيمها ، قال :((والدليل على جهله أنّه يدّعي أنّ الألف في قراءة ورش (طَالَ ، فَصَالَ) وما أشبهها مرقّقة، وترقيقها غير ممكن لوقوعها بين حرفين مغلّظين ، والدليل على غلظ طبعه أنّه لا يُفرّق في لفظه بين ألف (قَالَ) وألف(حال) حالة التجويد))[٦٢] ،وهذا يعني أنّ ورشاً كان يُغلّظ اللام الأخرى كذلك ، بالرغم من كسرها - لغرض الانسجام

الصوتي في مقاطع الكلمة ، والتقريب بين أصواتها في صفة صوتية واحدة .

أمّا تغليظها مع حرفي الاستعلاء (الخاء و الغين) ، فيعود إلى أنّ هذين الصوتين حين النطق بهما يرتفع مؤخر اللسان إلى الحنك الأعلى (الطبق) حتى يتّصل به اتّصالاً يسمح بمرور الهواء فيحتك في نقطة الاتّصال [٦٣] ، وبسبب هذه الحركة العضوية المتمثلة بارتفاع أقصى اللسان عرفت بالمستعلية، كما عُرفت بالطبقية نسبة إلى دور الطبق اللين في عملية إنتاجهما .

ويستنتج من ارتفاع مؤخر اللسان في حين نطقهما أنّهما من أصوات التفخيم ، وإذا وقع بعدهما فتحة قصيرة أو طويلة كان تفخيمهما أبلغ [٦٤] ، أي أنّ الحركة لها دور في زيادة درجة الصوت ، غير أنّه يمكن النظر إلى هذين الصوتين على أنّهما:

١– شبه مُفخّمين قياساً إلى أصوات الإطباق الأربعة ،لأنّ تفخيم هذه الأخيرة أقوى من تفخيم بقية الأصوات المستعلية وهي القاف والخاء والغين ، كما ذهب إلى ذلك بعض القدماء [٦٥] .

٢ – مُفخّمان في سياقات مُعينة ، حين يتلوهما فتحٌ أو ضمّ قصير أو طويل[٦٦] وكذلك حين يقعان بعد صوت مطبق كما في(طَغَا) و(أضْغاث) وليس في القرآن خاء مفتوحة أو مضمومة بعد مُطبق .

ولذلك ، فإنّ تغليظ اللام بعدهما لا يعدو أن يكون مطلباً سياقياً يكمن في تأثير الصوت القويّ في الصوت الليّن الذي يجاوره في سلسلة الكلام ،ومن المقرّر في النظام المقطعي في اللغة العربية أنّه إذا تجاور صوتان الأول مفخّم والتالي مرقّق فإنّ التالي ينجذب إلى الأول ولا سيّما إذا كان الصوت المفخّم في بداية مقطع ، فإذا وقعت اللام بين مفخّمين فذلك أقوى وأدعى لانجذابها إلى بيئة تسود فيها عناصر مُفخّمة، وعلى هذا يُمكن لورش أن يغلّظ اللام في مثل : (خَلَصُوا نجيّا) و (خَلَطُوا) و (إنّا أخلَصْناهم) و (الخُلَطاء) و (فاستَغْلَظَ) ، وله أن يُغلّظ اللام في(خَلَقَ) وتصاريفها الواردة في القرآن ؛لأنّ القاف من أصوات الطبق التي يتم نطقها برفع مؤخّر الطبق وهو كالخاء والغين شبه مفخّم ،قال الدكتور تمام حسّان :((له بعض القيمة التفخيمية ، ولكنّه لا يوصف بأنّه مفخّم))[٦٧] ولا شكّ في أنّ تفخيمه يرجع إلى موقعه في السياق وذلك إذا وليه فتحة طويلة كما في (الْقَارعة) ، أو صوت مطبق في مثل (القَصَصُ الحَقّ) و (فَقَضَاهُنّ) ونحو ذلك .

رأي

وبعد ، فذلك هو تفسير لظاهرة تغليظ اللام في قراءة ورش وتبقّى لنا رأيٌ فيها ، وهو رأي لا يخرج عن تصوّر لمخرج هذه الصفة الصوتية التي تلوّن فونيم اللام في اللغة العربية الفصحى ،وقبل ذلك أودّ أن أُشير إلى أنّه : إذا كان من المُقرّر في الدرس الصوتي الحديث أنّ التغيّر التركيبي في بنية الكلمة يقتصر دوره على إنتاج صور صوتية لفونيم مُعين ولا ينتج صوتاً جديداً غير معروف في اللغة كما يقول فندريس [٦٨] فإنّ التغليظ باعتباره صورة نطقية (لحرف) اللام في العربية لا يُعدّ ظاهرة نطقية جديدة في كلام العرب ، فقد رويت لنا بعض صورها في كتب اللغة وإن لم يُصرّح باسمها ، ولعلّ أقدم مثال لها - كما أرى - ما ذكره سيبويه من قول بعض العرب : الْطَجَع في : اضْطَجَع، وفسّره بقوله : ((أبدل اللام مكان الضاد كراهية التقاء المطبقين فأبدل مكانها أقرب الحروف منها في المخرج والانحراف))[٦٩] وما يُفهم من كلام سيبويه أنّ مخرج الضاد القديمة(الجانبية) وهو (من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس) حسب ما ذكر سيبويه - قد انتقل إلى أقرب مخرج له وهو مخرج اللام ،وإذا علمنا أنّ الضاد من بين الأصوات المستعلية والمفخّمة في آن واحد نستطيع أن نتصوّر أنّ هذه اللام المُبدلة في (الّطجع) لم تكن لتنطق ليّنة ، بل الراجح أنّها نُطقت كما تُنطق اللام في اسم الله في حالة الابتداء به ، ويُرجّح هذه الصورة لدينا هو مجاورتها لصوت الطاء وهو صوت مُفخم انفجاري ، فلا يبعد تأثيره في اللام من خلال اكتساب هذا الأخير شيئاً من صفات الصوت الذي يليه في التركيب ، فضلاً عن رغبة المتكلم في زيادة رنين الصوت ليكون أوضح في السمع ،ولا يتحقق له ذلك إلا بإبداله بصوت آخر يحمل مثل هذه الطاقة التصويتية التي يوفّرها له عنصر التفخيم .

ومن الغريب أنّ سيبويه لم يُشر إلى هذه الصورة النطقية للّام في كلامه عن الأصوات الفروع المستحسنة وغير المستحسنة في القراءة وإنشاد الشعر (في باب الإدغام) ، وليس من تفسير لذلك سوى أنّ هذه اللام لم تكن مرويّة عن قرّاء الأمصار في العراق والحجاز على وجه الخصوص ، ولعلّها – كذلك - لم تكن ظاهرة نطقية مسموعة من العرب في بيئة البصرة في أيّامه ولعلّ هذه الصورة النطقية الناشئة بإبدال الضاد كانت مسموعة في أيّام ابن الجزري فقد ذكر أنّ هناك طائفة من الناس تُخرجها لاماً مُفخّمة وذَكر أنّهم (الزيالع)[٧٠] ، وعلى كلّ حال فإنّ هذه الصورة النطقية ما زالت مسموعة في بلدان الخليج العربيّ وفي بعض محافظات العراق ، فنسمع مثلاً: وكْت الصَّلَا ، أي :وقت الصّلَاة ، وطَلَال ، والغَلَا أي الغلاء ، وبَطَل، وغيرها من الكلمات التي ترد فيها اللام متأثرة بصوت أو أكثر من أصوات الاستعلاء .

والذي يظهر لي أنّ نطق اللام في مثل هذه المفردات إنّما يتمّ باتصال مُقدم اللسان بمقدّمة الطبق ممّا يلي اللثّة ،وهو نطق شبيه بنطق اللام في لفظ الجلالة بحسب نطق القرّاء المجوّدين المصريين من أمثال الشيخ عبد الباسط عبد الصمد- رحمه الله - وقد أظهرت لي قراءة الشيخ عبد الباسط لبعض السور [٧١]أنّ اللام في لفظ الجلالة (الله) كانت تنطق طبقية - لثوية، أمّا بقية اللامات فكانت لثوية أو أسنانية لثوية ، كما في(خالِدين فيها - إنّ في ذلِك لَعِبْرة - الذين أوتوا العِلم - إلى بني إسرائيلَ - ربّ اجعلْ لي آيةً - بالقِسْطِ -) وهو ممّا ورد في سورة آل عمران .

وبسبب من هذا جاء اختلاف المحدثين في تحديد مخرج اللام اللينة فهي عند بعضهم لثوية [٧٢] وعند آخرين أسنانية لثوية [٧٣] وهو تحديدٌ مبنيّ على أنّ طائفة من اللامات الليّنة تنطق باعتماد مقدّمة اللسان على اللثّة وأخرى منها تنطق باعتماد مقدّمة اللسان على الأسنان العليا واللثة معاً ، وإن كان النطق الأول هو الغالب .

وأصلُ بعد ذلك إلى القول : بأنّ اللام التي تقع بعد صوتٍ مطبق في قراءة ورش لم تكن لاماً خلفية خالصة ، أي أنّها لم تكن تنطق باتصال مقدمة اللسان بالطبق الصلب وإنما كانت تنطق باعتمادها على مقدمة الطبق الصلب مع اللثة ، وهذا النطق هو الذي قرأ به أبو عمرو الداني [٧٤] وهو ظاهرة لهجية كما مرّ بنا ، أمّا نطقها باعتماد مقدّمة اللسان على الطبق الصلب مِمّا يلي اللثة فهو ممكن وذلك برفع مقدمة اللسان إلى الأعلى حتى يتصل بمقدّمة جدار الطبق ، وهذه الحركة العضوية قد تُصاحب نطق اللام في لفظ الجلالة ، وهو واردٌ على كلّ حال في بعض المواقف الانفعالية على نحو خاص ، وهو نطقٌ تستسيغه الأذن العربية ، أمّا نطق اللام التي يجاورها أحد حروف الإطباق في إطار هذه العملية العضوية فلا يعدو أن يكون صورة نطقية غير مألوفة في كلام العرب وأحسب أنّ ابن شامة قد عناها في قوله :((ولا شكّ أنّه إن ثبت لغةً فهو لغةٌ ضعيفة مُستثقلة فإنّ العرب عُرف من فصيح لغتها الفرار من الأثقل إلى الأخفّ))[٧٥]،ولهذا فإنّنا نتصوّر أنّ اللام التي كان ينطقها ورش - مع حروف الإطباق خاصة - هي أشبه باللام التي ينطقها القرّاء في كلمة (الله) ، وعندي أنّ هذه اللام ليست أمامية ولا خلفية من حيث المخرج ، وإنّما مخرجها بين اللثة وبين مُقدّمة الطبق الصلب أي أنّ مقدّم اللسان يعتمد عليهما لإنتاجها ، وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن أيوب أنّ السقف الصلب يشترك مع طرف اللسان ووسطه ومقدّمته في إنتاج عدد من الأصوات من بينها نوع من اللام [٧٦] وما هذا النوع إلّا تلك الصورة النطقية التي نسمعها في نطق لفظ الجلالة (الله) .ومع ذلك، فإنّ هذه الصورة النطقية – نطق اللام في سياق مجاورتها لأصوات الاستعلاء - مِمّا تفرّد بها ورش في مصر خاصّة ، ولم تعرفها بلاد الشام والعراق والحجاز بحسب علمي ،وقد ذكر بوعلي الأهوازي مقرئ الشام أنّ : ((أهل العراق

ومدينة السلام وأصبهان وخراسان ما يعرفون ذلك عن ورش ولا يأخذون به))[٧٧].

الخاتمة

وبعد ،فإنّ الذي استقرّ عليه البحث جملةٌ من النتائج أشير إليها في هذا الموضع وهي :

أوّلا : أبان المدخل أنّ مصطلح التغليظ عند القدماء ذو دلالة مركّبة من صورة نطقية لفونيم اللام ، ومن عملية عضوية مُعيّنة مسؤولة عن إنتاج هذه الصورة النطقية ، والتغليظ بهذا المفهوم لم يرد له ذكر في المعاجم العربية التي يرقى تصنيفها إلى القرن الرابع الهجريّ ،كما لم يرد له ذكر في لسان العرب لابن منظور المصريّ ، الأمر الذي أفضى إلى ترجيح تداوله في بيئة مخصوصة هي بيئة القرّاء- وفي مصر خاصّة – وكان لورشٍ الفضلُ في بيان مواضعه وتقريب صورته لتلاميذه الذين أشاعوا من بعده قراءة التغليظ روايةً عنه حتّى استقرّ مصطلحاً عند علماء القراءة والتجويد ، وأصلاً من أصول القراءة لديهم .

ثانياً : كشف المبحث الأوّل أنّ اللام العربية - عند أغلب علماء القراءة والتجويد - لا تخرج عن نوعين اثنين هما: اللام المرققة واللام المغلّظة ، وكان المعيار الذي اعتمدوه في التمييز بين هذين النوعين قائماً على فكرة الأصل والفرع ، وهي فكرة كانت سائدة في الدرس النحوي على وجه خاص وفي الدرس اللغويّ بوجه عام ، وقد رأى البحث أنّ التمييز بين الصور النطقية لفونيم اللام إنّما يعتمد على كيفية عملية النطق لهذه الصورة أو تلك ، وهذه الكيفية تكمن في أنّ موضع الاتصال بين عضوي النطق هو المسؤول عن ذلك كلّه . وقد أفضى بنا هذا الأساس إلى التمييز بين ثلاثصور نطقية لفونيم اللام ، هي : اللام الأمامية التي تتكوّن باتصال مقدّم اللسان باللثّةوهي اللام المائعة أو المرققة ، واللام الخلفية التي تتكوّن باتصال مقدّمة اللسان بسقفالحنك الصلب وهي اللام المُغلّظة ،واللام المتوسّطة التي تتكوّن باتصال مقدمة اللسانبمقدمة الحنك الصلب .ولا يبعد أن تكون هذه الصور النطقية متداولة في بعض اللهجات العربية القديمةثمّ انحدرت إلى بعض لهجاتنا الحديثة التي تُعد امتداداً لها ، بالرغم من أنّ القدماءمن اللغويين وعلماء القراءة لم يسجّلوا لنا هذه الصور الثلاث ، مكتفين بالإشارة إلىصورتين منها لا غير وهما : اللام اللينة ، واللام المتوسّطة التي وصفت من قبل علماء القراءة والتجويد بالتغليظ .

ثالثاً: ينبني على ما قرّره علماء القراءة والتجويد في أنّ اللام التي في لفظ الجلالةهي لام مغلّظة

، من جانب ، وعلى ما ذهبنا إليه من القول بوجود ثلاثة أنواع من اللام في العربية - في ضوء اللهجات العربية- على أساس نقطة الاتصال من جانبآخر ، أنّ صورة تلك اللام التي وردت في سياق أصوات الاستعلاء في قراءة ورْشما هي إلّا اللام المتوسّطة بين التليين والتغليظ ، وهي التي يمكن أن توصف بأنّهاشبه مُغلّظة بمعنى أنّ فيها شيئاً من صفة اللين ، كما أنّ فيها شيئا من صفة الغلظةوهذه البينية هي موضع الغلق الذي ينتج لنا هذا النوع من اللام الذي نسمعه في لفظالجلالة ، ولا شكّ – بعد ذلك – في أنّ هذه اللام من بين الصور النطقية المستساغةفي النطق والسمع على حدّ سواء ، بالرغم من ذهاب علماء التجويد إلى مراعاة الأصل في نطق اللام التي تقع في حيّز حروف الاستعلاء،وذلك الأصل هو التليين .

هوامش البحث

١–ينظر : المفيد في شرح عمدة المُجيد ٣٩

٢ – ينظر معجم الأدباء ١٢ / ١١٦ ومعرفة القرّاء ١ / ٣٢٣

٣ – المصدر السابق (معجم الأدباء)

٤ – في معجم البلدان ٤ / ٣٨٣

٥ – معجم الأدباء (موضع سابق) وغاية النهاية ١ / ٥٠٢

٦ - معرفة القرّاء ١ / ٣٢٣

٧–معجم الأدباء / موضع سابق

٨ – معرفة القرّاء ١ / ٣٢٤

٩ – معجم الأدباء ١٢ / ١١٧

١٠ –الرآس هو بائع الرؤوس من النعاج والبقر ونحوهما . وذكر الجوهري أنّ العامة تقول : روّاس (الصحاح) : رأس ٢ / ٩٣٢ ، وهو ما ذكره الذهبي في قوله : ويعرف ورش بالروّاس . معرفة القراء ١ / ٣٢٣

١١–معجم الأدباء ١٢ / ١١٩

١٢– الإبانة عن معاني القراءات ٨٩

١٣ – ينظر معرفة القراء ١ / ٢٤٣

١٤ – معجم الأدباء ١٢ / ١٢١

١٥ – الإبانة عن معاني القراءات ٨٤ – ٨٥

١٦ –السبعة في القراءات ٨٩

١٧ - ينظر إبراز المعاني ٢٦١

١٨ – ينظر معرفة القراء ١ / ٣٧٣

١٩ – المصدر السابق ١ / ٣٧٤

٢٠ ــ نفسه ٢ / ٧٧٦

٢١ ــ ينظر : اللسان (غلظ) ١١ / ٧١

٢٢ ــ كالعين والجمهرة وتهذيب اللغة ومقاييس اللغة والصحاح .

٢٣ ــ إبراز المعاني ٢٦١

٢٤ ــ ينظر : النشر ٢ / ١١١ وإبراز المعاني ٢٦١

٢٥ــ النشر ١ / ٩٠

٢٦ ــ الدكتور إبراهيم أنيس في الأصوات اللغوية ٥٩ والدكتور تمام حسان في مناهج البحث في اللغة ١٥٤

٢٧ ــينظر : في الأصوات اللغوية ١٦٨ ــ ١٦٩

٢٨ ــ ينظر : النشر ٢١٥ ــ ٢٢١

٢٩ ــ إبراز المعاني ٢٦١

٣٠ ــ الكتاب (بولاق) ٢ / ٤٠٥ وفي طبعة عبد السلام هارون سقطٌ في النصّ .

٣١ ــ ينظر : علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ١٢٣ والمدخل إلى علم اللغة ٢٥

٣٢ ــ ينظر : الأصوات اللغوية ١٨ ، ٢٠

٣٣ ــ ينظر : الكتاب ٤ / ٤٣ ، ٤٣٥

٣٤ ــ المصدر السابق ٤ / ٤٣٥

٣٥ ــ ينظر الأصوات اللغوية ١٠٢

٣٦ ــ الكتاب ٤ / ٤٣٤

٣٧ ــ المصدر السابق

٣٨ ـ ينظر : مناهج البحث في اللغة ١٠٤

٣٩ ـ علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ١٧٠

٤٠ ــ مناهج البحث في اللغة ١٠٤ و ٣٠٥

٤١ ــ الأصوات اللغوية ٥٩

٤٢ ــ علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ١٥٩

٤٣ ــ مناهج البحث في اللغة ١٠٥ وينظر : المدخل إلى علم اللغة ٤٧

٤٤ ــ ينظر : أسس علم اللغة ٨٦

٤٥ــ مرشد القارئ ٥٥ ــ ٥٦

٤٦ ـ مناهج البحث في اللغة ٦٠

٤٧ ــ المصدر نفسه

٤٨ ــ النشر ٢ / ٢١٥ ــ ٢١٦

٤٩ ــ ينظر : الإقناع ٣٣٨ وجمال القراء ٦٥٨

٥٠ ــ النشر ٢ / ١١١

٥١ ــ السابق . وينظر : الكشف ١ / ٢٢٠

٥٢ ــ النشر ٢ / ١١٥

٥٣ ــينظر في تغليظ اللام عند ورش : التذكرة ١٨١ والكشف ١ / ٢١٩ ــ ٢٢١ والتحديد في الاتقان ١٦٠ والكافي ٧٠ والإقناع ٣٣٩ وشواذ القراءات ٣٣ وسراج القارئ ١٢٣ وإبراز المعاني ٢٦١ والنشر ٢ / ١١٢

٥٤ ــ ينظر الكشف ١ / ٢١٩ وسراج القارئ ١٢٣

٥٥ ــ ينظر النشر ٢ / ١١٢

٥٦ ــ مناهج البحث في اللغة ١٥٤

٥٧ ــ الكشف ٢ / ٢١٦

٥٨ ــ ينظر : دراسة الصوت اللغوي ١٢٥

٥٩ــ فقه اللغات السامية ٥٣

٦٠ ــ علم الأصوات ٥٠٩

٦١ ــ في : الكشف ١ / ٢٢١

٦٢ ــ النشر ١ / ٢١٥ ــ ٢١٦ . وابن بصخان هو محمد بن أحمد أبر عبد الله المقرئ النحوي الدمشقيّ توفيَ سنة ٧٣٤ للهجرة (بغية الوعاة ١ / ٢٠)

٦٣ ــ ينظر التحديد ١٠٦ ــ ١٠٧

٦٤ ــ ينظر النشر ١ / ٢١٨

٦٥ ــ المصدر السابق ٢ / ٢٠٢ ــ ٢٠٣ ودراسات في علم اللغة ٢٠٨

٦٦ - ينظر : علم الأصوات ٤٠٢

٦٧ ــ مناهج البحث في اللغة ٩٦

٦٨ ــ اللغة ٩٥

٦٩ ــ الكتاب ٤ / ٤٨٣

٧٠- ينظر : التمهيد ١٤١ والنشر ١ / ٢٩١ . والزيالع طائفة من السودان في أرض الحبشة وهم مسلمون كما في معجم البلدان ٣ / ١٦٤

٧١ ــ سورة البقرة وآل عمران والنساء التي استمعت إليها عصرَ يوم السبت ١٠ / ٨ / ٢٠١٣ من قناة القرآن الليبية .

٧٢ ــ ينظر : الأصوات اللغوية ٥٩ وعلم اللغة ١٦٩ ومناهج البحث في اللغة ١٠٥ والمدخل إلى علم اللغة ٤٧ ودراسة الصوت اللغوي ٣١٧

٧٣ ــ علم الأصوات ٣٤٧

٧٤ ــ ينظر الإقناع ٣٤٠

٧٥ــ إبراز المعاني ٢٦١

٧٦ ــ ينظر : محاضرات في اللغة ٩٣

٧٧ ــ الإقناع ٣٤٣

مصادر البحث ومراجعه

***القرآن الكريم**

*الإبانة عن معاني القراءات ، مكي بن أبي طالب ، تقديم وتحقيق د . عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، طبعة دار نهضة مصر .

*إبراز المعاني من حرز الأماني ، أبو شامة الدمشقي ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

*أسس علم اللغة ، ماريو باي ، ترجمة وتعليق د . أحمد مختار عمر ، ط ٨ مصر ١٩٩٨

*الأصوات اللغوية ، د . إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية .

*الإقناع في القراءات السبع ، ابن الباذش ، تحقيق وتقديم د . عبد المجيد قطامش ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٣

*بغية الوعاة ، السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ دار الفكر ١٩٧٩

*التحديد في الاتقان والتجويد ، أبو عمرو الداني ، تحقيق د . غانم قدوري الحمد ، دار عَمّان ، عمّان ٢٠٠٠

*التذكرة في القراءات ، ابن غلبون ، تحقيق د. سعيد صالح زعيمة ، دار ابن خلدون ، الاسكندرية ٢٠٠١ .

*التمهيد في علم التجويد ، ابن الجزري ، تحقيق د . غانم قدوري الحمد ، بيروت ١٩٨٦

*جمال القرّاء وكمال الإقراء ، تحقيق مروان العطية ومحسن خواجة ، دمشق ١٩٩٧

*دراسة الصوت اللغوي ، د . أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ١٩٩٧

* دراسات في علم اللغة ، د. كمال بشر ، دار غريب ، القاهرة ١٩٩٨

*السبعة في القراءات ، ابن مجاهد ، تحقيق د . شوقي ضيف ، ط٣ دار المعارف ، مصر

*سراج القارئ المبتدئ ، أبو القاسم العذري البغدادي ، ط ٣ مطبعة الحلبي ١٩٥٤

*شواذ القراءات ، الكرماني ، تحقيق د . شمران العجلي ، مؤسسة البلاغ ، بيروت

*الصحاح ، الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت .

*علم الأصوات ، د . كمال بشر ، دار غريب ، القاهرة ٢٠٠٠

*علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ، د . محمود السعران ، دار النهضة العربية ، بيروت

*غاية النهاية في طبقات القرّاء ، ابن الجزري ، تحقيق برجشتراسر ، مكتبة الخانجي ، مصر ١٩٣٢ .

*فقه اللغات السامية ، بروكلمان ، ترجمة د . رمضان عبد التواب ، الرياض ١٩٧٧

*الكافي في القراءات السبع ، ابن شريح الرعيني ، تحقيق أحمد محمود عبد السميع شافي بيروت ٢٠٠٠
*الكتاب ، سيبويه ، طبعة بولاق ، وطبعة عبد السلام هارون ، ط١ دار الجيل ، بيروت
*الكشف عن وجوه القراءات السبع ، مكي بن أبي طالب ، تحقيق د . محي الدين رمضان ط٣ مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤
*لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ٢٠٠٥
*اللغة ، فندريس ، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية
*محاضرات في اللغة (القسم الأول) ، د . عبد الرحمن أيوب ،بغداد ١٩٦٦
*المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د . رمضان عبد التوّاب ، ط٣ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٩٧
*مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ ، ابن الطحان ، تحقيق د . حاتم الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٩
*معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٧
*معرفة القرّاء الكبار ، شمس الدين الذهبي ، تحقيق فولاج ، استانبول ١٩٩٥
*معجم الأدباء ، ياقوت الحمويّ ، تقديم مرجليوث ، ط٣ دار الفكر ١٩٨٠
*المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد ، ابن قاسم المرادي ، تحقيق د. علي حسين البواب ، الأردن ١٩٨٧
*مناهج البحث في اللغة ، د . تمّام حسان ،مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٩٠
*النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ، تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع ، دار الكتب العلمية ، بيروت .